إ ٢٠٠٢/١

قداس رأس السنة

صباح الثلاثاء ١ كانون الثاني ٢٠٠٢، وبمناسبة ذكرى ختانة السيد وعيد أبينا الجليل في القديسين باسيليوس الكبير، ترأس سيادة متروبوليت بيروت وتوابعها المطران الياس عوده خدمة القداس الإلهي في كنيسة نياح السيدة في رأس بيروت، بحضور حشد من المؤمنين. بعد الإنجيل المقدس ألقى سيادته العظة التالية:

«في المقطع الإنجيلي الذي قرأناه عليكم سمعنا يسوع يقول لأمه وليوسف «لماذا تطلبانني. ألم تعلما أنه ينبغي لي أن أكون في ما هو لأبي» (لوقا ٢: ٤٩). هذا القول يجب أن يكون قول كل مؤمن محبّ لله. يسوع المسيح الطفل أراد أن يبقى في الهيكل مع رؤساء الكهنة والكهنة والمعلّمين، يسمع ويسأل ويجادل. كان يشعر أنه هناك في بيته الحقيقي وكان يجد فكره وقلبه وكلامه في ما يقرأون، في الكلام الذي منه يستقون. كان يجادلهم ويسألهم وقد اندهشوا من حكمته وفهمه. لا شك أنهم وجدوا فيه طفلاً مميّزًا عن سائر الأطفال، وقد يكون من القلة الذين يسعدون في الوجود في بيت الرب وقراءة كلمته عوض اللهو واللعب. لقد أحب المكوث في حضرة الله وفاق حبه هذا كل حب آخر. أين الأطفال الذين يشبهون الطفل يسوع؟ قد لا نجد أحدهم في الكنيسة اليوم. يسوع ترك الأهل والأقرباء وأحب أن يستكين إلى كلمة الله وأن يغتذي بها ويرتوي من ينابيعها. وكأني بهذا الصبي الذي كان «ينمو ويتقوى بالروح» كما يقول الإنجيلي، يقول لأمه وليوسف: لماذا تطلباننني؟ أنتما أتيتما إلى الهيكل لتقدّما ذبيحة عنكما وعني ولتقولا لله إن بيتكما وقلبيكما وحياتكما كلها مع الله، وهذا ما فعلته أنا، بقيت في الهيكل لأكون مع الله، متحدًا به، لأن من يحب الله ينبغي أن يكون في ما لأبيه الإلهي. الإنسان يطيع والديه وأحباءه لكن الطاعة الأولى هي طاعة الله. وإذا واجه محبُّ الله فكرًا أو رأيًا أو عملاً يناقض قلب الله وفكره يحاربه لأنه ينبغي أن يعمل ما هو لله.

اليوم نعيّد لذكرى ختانة الرب يسوع. عندما أصبح في اليوم الثامن من عمره خُتن كما كانت العادة عند اليهود. في العهد القديم أمر الرب بالختان كي يصبح النسل كله للرب. يُضحّى بالدم ليصبح الإنسان من أهل العهد. الدم في عملية الختان رمزٌ للدم المهراق على الصليب. الختان رمزٌ يعني أن المختون أصبح يخص الله، مؤمنًا به، سامعًا له، عاملاً بوصاياه في كل حين. الختان في العهد القديم هو رسم للمعمودية والصليب. الختان بالنسبة لليهودي هو العلامة الخارجية لوحدته مع الله، لدخوله في العهد. لكن هذا الرسم ليس سوى الدليل على ما يحصل في القلب. الختان الخارجي شكلي، رسمٌ للختان الحقيقي الذي هو ختان القلب أو الختان الداخلي. كل ما هو زائد يُرمى. الختان الجسدي في العهد القديم كان ختم العضوية في شعب العهد. إبراهيم أخذ علامة الختان ختمًا لبِرّ الإيمان الذي كان له، أي علامة قبوله لدى الله. لكن هذا الختان ليس بشيء إن لم تختتنوا للرب وتنزعوا غرل قلوبكم (ارميا ٤: ٤). الختان الحقيقي يكون برمي الإنسان القديم، بصلب إنسان الشهوة والخطيئة والميول الشريرة الذي يؤدي بنا إلى الهلاك. الختان الحقيقي هو رمي الطبيعة الساقطة الشريرة التي لا تموت إلا إذا اتحدنا بالمسيح المصلوب. المسيح تجسد، لبس جسدنا المائت لكي يسمّره على الصليب ويميت كل ميل فيه إلى الخطيئة وكل انحراف إلى غير الله. في آدم كان الإنسان خاضعًا لطبيعته الساقطة. مع المسيح صار الإنسان خاضعًا لله في المسيح، آدم الجديد، الإنسان الجديد. الخطيئة أصبحت جسمًا غريبًا في كيانه وهو ينتصر عليها عندما يصبح المسيح فيه الكل في الكل. الإنسان المسيحي الناصع القلب والضمير الذي يلهج بالله بلا انقطاع ينزعج من الخطيئة.

خلع الطبيعة القديمة حصل بالمعمودية، الختان الجديد، العلامة الجديدة للانتماء في العهد الجديد. الإنسان القديم يُدفن ــ عندما يُغطس الطفل ثلاثًا ــ ليقوم الإنسان الجديد في المسيح. كل من اعتمد ليسوع المسيح اعتمد لموته، ونحن الذين اعتمدنا لموته «دُفنّا معه بالمعمودية للموت حتى كما أُقيم المسيح من الأموات بمجد الآب، هكذا نسلك نحن أيضًا في جِدّة الحياة، لأننا إن كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته، نصير أيضًا بقيامته، عالمين هذا: إن إنساننا العتيق قد صُلب معه

ليُبطل جسد الخطيئة كي لا نعود نُستعبَد للخطيئة فإن كنا قد متنا مع المسيح، نؤمن أننا سنحيا أيضًا معه» (رومية ٦: ٤-٨).

في المعمودية العرّاب يلعب دورًا جوهريًا لأنه يتعهد باسم الطفل أن يحيا حياة مسيحية. العرّاب هو القديس الذي عليه أن يجعل من الطفل المعمّد قديسًا. عليه أن يعلّمه الإيمان والاستقامة والنزاهة وكل فضيلة. هو الأب الروحي للطفل، يرافقه في مراحل حياته الروحية ويدرّبه على صلب الخطيئة فيه وخنق كل شر ورذيلة في نفسه لكي تنمو المحبة وتزهر الفضائل.

مساء أمس، فيما كنت أتأمل كلمة الرب لكي أنقلها إليكم اليوم، سمعت صراخ المبتهجين باستقبال السنة الجديدة. أهكذا نستقبل السنة؟ بالألعاب النارية والقمار والرقص والهزج عوض أن نركع ونصلّي مع العائلة سائلين الله أن يغفر لنا خطايانا التي اقترفناها في السنة الماضية، والإساءات التي قمنا بها تجاه الغير، والتقصير تجاه الفقير والمحتاج وأن يرافقنا خلال السنة القادمة لكي نفرح به وبمن حولنا.

روبليف، كاتب أيقونة روسي من القرن الخامس عشر، بقي صامتًا سنوات طويلة رسم بعدها أيقونة الثالوث الشهيرة التي نرى فيها ثلاثة ملائكة متشابهين جالسين حول مائدة، بضيافة إبراهيم وسارة. الملائكة يمثلون الثالوث، وبإمكاننا أن نميّز ذاك الذي يمثل الله الابن من حركة خضوعه لله الآب وتسليمه نفسه لإرادة أبيه من أجل خلاص البشر.

موت المسيح في عيني الرسول بولس هو تسليم الرب يسوع جسده بكل وعي وإدراك، طاعة منه لمشيئة الآب. هذه الطاعة التي أدت إلى المعمودية ومنها إلى الصليب والقبر والقيامة. في المعمودية يأتي المسيحي طوعًا ليصبح واحدًا مع المسيح في موته ودفنه وقيامته بشكل حيوي وعضوي، مما جعل الرسول بولس يقول: «الآن أفرح في آلامي لأجلكم وأكمّل نقائص شدائد المسيح في جسمي لأجل جسده الذي هو الكنيسة» (كولوسي ١: ٢٤). وكأنه يقول للرب يكفيك آلام عنا. أنا سأتألّم عنك. سأكمل آلامك. أنا امتدادٌ لك. أنت فيّ وأنا فيك، لأني لست أنا أحيا بل أنت تحيا فيّ.

الكنيسة لا تصبح عروسًا ناصعة إلاّ بالصليب والألم. لكن هـذا الأمـر لا يحصل في خدمة المعمودية كما نراها ظاهريًا شكليًا، بل بما يسـعى المعتمـد أن يفعله وأن يصبحه. عليه أن يهتم بما هو فوق لا بما على الأرض، لأنه بالمعمودية مات وحياته مستترة مع المسيح في الله. عليه أن يميت ما هو أرضي، كل ما هـو متعلّق بالإنسان العتيق: الزنا، النجاسة، الهوى، الشهوة الرديئة، الطمع الذي هـو عبادة الأوثان. عليه أن يطرح جانبًا الغضب والسخط والخبث والتجديف والكـذب والكلام القبيح، وعليه أن يلبس التواضع والوداعة والرأفة واللطف وطول الأنـاة والاحتمال والمسامحة والغفران وفوقها المحبة التي هي رباط الكمال. هذه الفضائل هي نتائج سكنى كلمة الرب فينا لأن الروح القدس يعمل فينا ويتكلّم مـن خلالنـا (كولوسي ٣).

دعائي في هذا اليوم أن نختن قلوبنا ونميت جسدنا القـديم، جسـد الشـهوة والميول الشريرة، لكي نحيا بالمسيح. أسأل الله أن يبارك هذا البلد وينقيه من كـل فساد، وأن يغيّر قلوب وعقول من يجعلون الفساد يستشري في وطننا. أقول هـذا لأنني أجد وطني مرتعًا لكل فساد. أرجو أن أكون مخطئًا إنما ينتابني شـعور أن الفساد متجذر في بلدي حتى العظم. كلنا سمعنا أن بعض الموظفين أُقصـوا عـن مراكزهم وعُيّن غيرهم مكانهم، لكن هل سمع واحد منكم لماذا تم الإقصـاء؟ هـل حوكم واحدٌ من الذين أُقيلوا من مراكزهم؟ إذا عوقب إنسانٌ بإزاحته من مركـزه فهذا يعني أنه مخطئ ويجب أن يحاكَم. فلمَ لم نشهد محاكمة أحد؟ ألكي لا نشـهد الفضائح؟ لكي لا يُفضح المسؤول الأعلى منه؟ نحن نعرف أن بعـض المـديرين العامين أُبعدوا لأنهم رفضوا مسايرة المسؤولين وارتكاب المخالفات. نحن نعـرف أن بعض الموظفين الأوادم، الشرفاء، الطيبين، الذين يعملـون بصـدق ونزاهـة عوقبوا لأنهم رفضوا تنفيذ أوامر رؤسائهم لأنهم لم يشاءوا تسـخير ضـمائرهم، وأُقيلوا ووضعوا في التصرف. حتى الشريف من المسؤولين يسـيء إلـى البلـد وأبنائه إن تغاضى عما يحصل. أنا أتمنى أن يعلن الموظفون الحقيقة علـى المـلأ ويفضحوا من وما يجب فضحه لكنني أفهم ترددهم لأنهم أرباب عائلات وعلـيهم الاهتمام بعيالهم.

نحن لسنا غافلين عن الصفقات والأوراق المزيفة التي على أساسها دُفعت المبالغ لمهجرين مزيّفين، والكنائس الوهمية التي باسمها قبض البعض مبالغ كبيرة، والموظفين المرضي عنهم لأنهم يسايرون، وأولئك المغضوب عليهم لأنهم يرفضون المساومة. أنا أطالب الدولة أن تحاكم كل موظف أزاحته عن مركزه. فنحن نرفض أن تُستغلَّ المراكز للمصالح الشخصية، لكننا نرفض أيضًا أن يُساء إلى إنسان دون أن يُحاكم، ولمَ لا علنًا، لكي نعرف جميعنا الحقيقة.

كلنا أيضًا شهدنا كيف تم تعيين ما يقارب المئتي موظف في جلسة واحدة. ألا يلزم وقتٌ أكثر لمجرد قراءة هذه الأسماء؟ أم أنهم لا يقرأون؟

ما أريد قوله أن الجميع سيدانون. إذا حصل مكروه ما لهذا البلد ــ لا سمح الله ــ ستتشير الأصابع إلى كل إنسان مسؤول عن الخراب.

نحن نريد بلدنا مختونًا نقيًا من كل شر وهذا يكون عندما تُعلَن الحقيقة، كل الحقيقة. فمن كان مسؤولاً عن خربطة البلد يجب أن يُفضح، وإذا لم يفضحه المسؤول عنه اسمحوا لي أن أشك بأن هذا المسؤول هو مسؤول عن الخربطة. أما أن يُتهم إنسان دون أي دليل، فهذا ظلم. لذلك أطلب من الدولة إما أن تعيد الموظّفين إلى مراكزهم أو أن تحاكمهم وأن تعلن نتائج المحاكمة، مع الرجاء أن لا تختفي الملفات أو تضيع في عتمات النسيان. هل ما زلتم تذكرون القضاة الأربعة الذين قتلوا؟ ما كانت نتيجة التحقيق؟ كل ما نعرفه أنهم ماتوا وأن الله وحده هو الذي يرحم. البشر يساومون وبعض المسؤولين يرعون الفساد ولو لم يكونوا فاسدين، لكن الساكت عن الشر شيطان أخرس، كما قال أحد الحكماء باللّه. أنا سأدافع عن المظلومين، وأنتم أيضًا، وهذا حقٌ لنا، إلى أن تتوقف الإساءة إلى كرامة الإنسان الموظف الذي يُزاح من مركزه لسبب مجهول ويوضع في التصرف، ودولتنا تدفع معاشات الموضوعين في التصرّف وتشكو من الهدر وتدّعي العمل على ضبط الإنفاق. فإما أن هذا الإنسان قد ارتكب خطأ ما ويُدان، وإما أنه بريء فلمَ التعدي عليه؟

لبنان لن يستعيد مكانته الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية أولاً إلاّ بناسه الشرفاء. أنا أصلّي من أجل هذا. ألا جعل الرب السنة القادمة سنة محاكمة للشر

وتبنٍّ للخير. صلّوا معنا لأن بلدنا لا يُنقذ إلا بالصلاة. أنتم تخلّصون لبنان بمحبتكم له وسهركم عليه ومساءلتكم المسؤولين فيه، وهـذا حـق للمـواطنين فـي بلـد ديمقراطي. صلّوا بصدق من أجل لبنان ومن أجل كل إنسان يتخذ قرارًا فيـه. الله يسمع الصادقين. وكل عام وأنتم ولبنان بألف خير. آمين»